الحركات الإصلاحية في الجزائر ودورها في نهضة الفكر الدّيني والقومي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال "عيون البصائر" 1947/1956 أنموذجا

Reformist Movements in Algeria and their Role in the Renaissance of Religious and National Through " Ayoun El Basair"

ط.د/ حورية طير

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)

houria.tir@univ-bba.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/31 **تاريخ القبول:** 2022/09/29

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى استشفاف الأثر الذي استبقته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبان الاستعمار الفرنسي الذي حاول مسخ وتشويه وطمس مقوّمات الشّخصية الجزائرية تمهيداً لدمجها لغةً وديناً وثقافةً، وهو الأثر الذي كان له الدّور الفعّال في مكافحة العدوّ، ولهذا فقد عدّت الحركة الإصلاحية التي تمثّلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أبرز الحركات التي حملت مشعل التّغيير والثّورة على المحتل الغاشم، وذلك بدعوتها إلى إعادة إحياء التّراث العربي الإسلامي وترسيخ مقوّمات الأمّة في أذهان الشّعب الجزائري، وهذا ما يدفعنا إلى طرح التّساؤلات الآتية: ما هي الأسس والمبادئ التي قامت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟ وما هي مظاهر الإصلاح الدّيني والقومي التي تبدّت بفضلها؟ وهل استطاعت بكفاحها الفكري الإصلاحي الدّيني والقومي ترسيخ المقوّمات الوطنيّة والإسلامية؟

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الاستعمار الفرنسي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد البشير الإبراهيمي، النّهضة، المقوّمات الدّينية والوطنيّة.

Abstract:

This study aims to explore the impact of the Algerian Muslim Scholars Association during the French colonialism; which tried to distort elements of the Algerian personality as a prelude to integrating them into language, religion and culture . An effect that had a role in combating the enemy. The most prominents movement that carried the torch of change and revolution against the brutal occupier, by calling

for the revival of the Arab-Islamic heritage and the consolidation of the components of the nation in the minds of the Algerian people, and this is what prompts us to ask the following questions: What are the principles and foundations on which it is based? What are the manifestations of religious and national reform? Did they succeed in consolidating the national and Islamic fundamentals

keywords: Algeria, French colonialism, Association of Algerian Muslim Scholars, Mohammed Al-Bashir Al-Ibrahim, Renaissance, Religious and nation features.

مقدمة:

بفعل الدّسائس والمؤامرات اللّعينة والخطط العسكرية الماكرة للإطاحة بالجزائر منذ عهد "نابليون بونابرت"، واستغلال حادثة المروحة كذريعة لدخول الجزائر واحتلالها، قامت فرنسا باحتلال الجزائر عام 1830م، فبرزت مقاومات مسلحة للحدّ من التّوسع الكولونيالي داخل الوطن، فنهضة الشعب ووعيه بالوضع العام للبلاد خاصة بعد الحرب العالمية الأولى. وانعكاسات النهضة الإصلاحية في المشرق العربي أدى إلى ظهور جمعيات وطنية إصلاحية لشحذ همم الجزائريين وتحريضهم للدفاع عن وطنهم من العدو الكولونيالي، وتعدّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية إصلاحية وهي ردّة فعل لوجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ عام 1830، حيث دافعت عن الهوّية العربية الإسلامية الجزائرية، وعملت على توعية المجتمع الجزائري لمقاومة المحتل، واتخذت المقاومة في البداية شكلا فكريا ثقافيا لإعادة القيم الروحية والفكرية للحضارة العربية الإسلامية في الجزائر، فالمقاومة المسلحة والمقاومة الإصلاحية الفكرية يسيران في خط متواز، وقد مرت جمعية العلماء بمرحلتين الأولى برئاسة العلامة عبد الحميد بن باديس، أما الثانية فقد ترأسها الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" بعد وفاة "بن باديس" عام 1940 باعتباره النائب الأول للجمعية، فقد سعى إلى النّهوض بالشّعب الجزائريّ وذلك من خلال تركيزه على تعليمية اللّغة العربية ومبادئ الشّريعة الإسلامية باعتبارها جمعية دينية إصلاحية، وفي هذه الورقية البحثية سوف نطرح بعض القضايا الدّينية والقوميّة التي تناولها الشيّخ "محمد البشير الإبراهيمي" خلال عهدته الإبراهيميّة، ومدى تأثيرها الكبير على الفرد والمجتمع.

أولاً: ماهية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية إسلامية في سيرها وأعمالها، جزائرية في مدارها وأوضاعها، علمية في مبدئها وغايتها، أسست لغرض شريف تستدعيه ضرورة هذا الوطن وطبيعة أهله ويستلزمه تاريخهم الممتد في القدم إلى قرون وأجيال[1]، أسّسها كوكبة من مثُقفي الوطن وخاصتهم لغاية سامية وأمر طارئ فرضته الظروف الواقعة آنذاك، فهي "تعد من أهم الهيئات الوطنية التي ساهمت في النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الواقعة 1956/1931م، وذلك بالنظر إلى الجهود الجبارة التي بذلتها في سبيل الحفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية"[2]، في حين يعرفها القانون الأساسي على أنّها "جمعية إرشادية تهذيبية، وأنه لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السّياسية وجاءت بقصد محاربة الآفات الاجتماعية، تدعو إلى الأخوة الإسلامية بين المسلمين وحفظ القوانين والحقوق بين جميع الأجناس، وتمجيد الإسلام واللّغة العربية[3].

فظهور مثل هذه الجمعيات الإصلاحية تطلبه الوضع المُقبع والمرزي لحالة البلاد في تلك الفترة، وانهيار الشّعب الجزائري فكرياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً بفعل الحملات الكولونيانية لهدم كل المعالم الدّينية والقوميّة للشّعب الجزائري، مقابل ترسيخ وغلغلة الثّقافة الفرنسية داخل أذهانهم لتنصيرهم وتجنيسهم ودمجهم تحت لواء الدّولة الفرنسية، غير أنّ الواقع العربي بعد الحرب العالمية الأولى قلب الموازين بظهور حركات توعوية إصلاحية تسعى لرفض الحالة الاستعمارية المسيطرة على الوطن، فتعدّدت الاتجاهات وتقاسمت المهام لكن الهدف واحد وسامي وهو لا للرّضوخ والذّل، نعم للحريّة والاستقلال. وتعدّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "حركة إصلاحية سلفية من جهة ولكنها من جهة أخرى تعارض كل سياسة تنادي بإدماج الجزائر في فرنسا، وتطالب الجزائر بالمحافظة على صبغتها الإسلامية والعربية، كما كانت تناضل في السرّ والعلانية في سبيل تنظيم الشعب كي ينهض لمقاومة الاستعمار من أجل تحرير الوطن، وضم الجزائر إلى الأسر العربية"[4].

ثانياً: المبادئ والأسس التي قامت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

إنّ من أهم ما نادت به جمعية العلماء هو تحرير عقول الشّعب من الثّقافة الكولونيالية والعودة إلى أصلنا ديناً وثقافةً ولغةً، ومنه بنت شعارها على هذا الأساس وناضلت من أجل تحقيق مراميه حيث اختصرته في "الإسلام ديننا – العربية لغتنا – الجزائر وطننا"[5]. وقد

لخصها "محمد البشير الإبراهيمي" باعتباره رئيسها الثاني بعد وفاة العلامة "عبد الحميد بن باديس" لسان حال جمعية العلماء تحت عنوان: (جمعية العلماء موقفها من السياسة والساسة) إذ يقول: (يا حضرة الاستعمار) إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه.

وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه – عدوانا بصريح اللفظ، وتطالبك بحرية التعليم العربي.

وتدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن.

وتعمل لإحياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها، في موطن عربي وبين قوم من العرب.

وتعمل لتمكين أخوّة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم.

وتذكر المسلمين الذين يبلغهم صوتها بحقائق دينهم وسير أعلامهم وأمجاد تاريخهم.

وتعمل لتقويّة رابطة العروبة بين العربي والعربي، لأن ذلك طريق إلى خدمة اللغة والأدب.[6]

فعندما نتمعن في جملة مبادئ الجمعية نجدها مستوحاة من القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة اللذين يعدا مرجعنا الأساسي في الحياة، وبما أنّنا مسلمون فلابد لنا ألا نتخلّى عن أصلنا ومرجعنا مهما كلفنا الأمر، وهذا ما سعت لتحقيقه هذه الجمعية الإصلاحية بعد أن أنهك المستدمر الفرنسي معالمه وهوياته.

ثالثاً: مؤسسوها

جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كتتويج للنّشاط الإصلاحي الذي قام به علماء الجزائر ونخبتها على صفحات الجرائد والمنتديات الثّقافية ومدارس التّعليم العربي الحر وذلك بعد سعيهم لإيجاد تنظيم يلم شملهم ويوحد كلمتهم، إذ اكتمل حلمهم وتحول نشاطهم الفردي إلى مشروع وطني يهدف لإعادة بناء المجتمع الجزائري على أسس جديدة دعائمها الجزائر وطننا والعربية لغتنا والإسلام ديننا، فالجمعية تأسّست خدمة للوطن وللقضاء على الأباطيل والخرافات التي استعملها المستعمر لبثّ روح الفشل في نفوس الجزائريين حتى لا يميلوا إلى الكفاح مستغلين عملهم الصحفي ومختلف الصحف الوطنية وجرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[7].

بدأ الوعي الديني والقومي في الجزائر في بداية القرن العشرين عندما زار الشيخ محمد عبده الجزائر عام 1904م، بعدها ظهرت مجموعة من العلماء الجزائريين الذين درسوا في تونس والمغرب والحجاز خلال سنوات الحرب العالمية الأولى (1914/1918)، وقاموا بتأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" في "الخامس من شهر أيار عام 1931م من صفوة من علماء الجزائر الذين ينتمون إلى مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت في العالم الإسلامي إبتداءا من القرن الثامن عشر الميلادي، وهؤلاء العلماء كلهم أو جلهم ممن لهم ماض حافل في خدمة الثقافة العربية – الإسلامية– والدعوة الإصلاحية – ومقاومة مشاريع الاستعمار المميتة ضدّ الشخصية القومية للشعب الجزائري جمعت بينهم وحدة الهدف ووحدة الفكرة، والمشرب والغاية[8]، حيث بدأ هذا التيار "في نهاية القرن التاسع عشر والذي يمكننا أن نسميه بالكلاسيكي بـ "عبد القادر المجاوي، و"المولود بن الموهوب"، و"عبد الحليم بن سماية"، وانتهت بـ "الطيب العقبي"، و"البشير الإبراهيمي" و"عبد الحميد بن باديس"[9].

وقد مرّت الجمعية بمرحلتين اثنتين، مرحلة ترأسها العلامة "عبد الحميد بن باديس" والذي يعدّ أحد رواد الإصلاح في الوطن العربي عامة وفي الجزائر بخاصة، حيث دامت رئاسته بين فترتيْ 1931 – 1940، وقد ناب عنه "أشد أتباعه حماسة الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" والذي يقول عنه الإنجليزي "ألستير هورن" يشهد أن ما قدّمه العلماء لإثارة إحساس الجزائريين بالوعي الدّيني والقومي يفوق ما قدمه غيرهم"[10].

رابعاً: نبذة عن حياة العلامة "محمد البشير الإبراهيمي"

هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله عمر الإبراهيمي نسبة إلى قبيلة عربية ذات أفخاذ وبطون عرفت بـ "أولاد إبراهيم"، وهي إحدى قبائل سبع متجاورة في سفوح الأطلس الكبير الشمالية المتصلة بقمم جبال "الأوراس" من الجهة الغربية.

ولد الشيخ يوم الخميس الرابع عشر من شوال سنة 1306هـ، الموافق للثالث عشر جوان 1889م، تلقى تعليمه على يد عمه الشيخ "محمد المكي الإبراهيمي" المعروف بمنطقة "ريغة", فأجازه الإجازة المعروفة عامة، ثم خلفه في التدريس، رحل "الإبراهيمي" إلى الحجاز سنة 1911م وعمره إذ ذاك إحدى وعشرون سنة ملتحقا بوالده الذي اتخذ المدينة المنورة

مستقرا له، فمرّ على القاهرة وزار فيها الجامع الأزهر والتقى ببعض وجوه العلم والأدب كالشيخ "رشيد رضا" و"أحمد شوقي"، ثم استقر به الحال في المدينة المنورة لخمس سنوات وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى اضطر "الإبراهيمي" ووالده الانتقال في النصف الأخير من سنة 1916 إلى سوريا أين درّس في العديد من مؤسساتها التعليمية، لكن اضطراب الأحوال في سوريا في النصف الأخير من سنة 1919م حال دون إكمال مسيرته العلمية فعاد إلى الجزائر في أوائل سنة 1920م، حيث ساهم رفقة الإمام "عبد الحميد بن باديس" وجماعة آخرين من علماء الجزائر في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتخبه زملاؤه رئيسا لها خلفاً للشيخ "ابن باديس" بعد أن وافته المنية في 16 أفريل 1940م[11].

وقد واصل الإبراهيمي في نفس الاتجاه، وقد أسس معهد الإمام عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة حتى يستكمل فيه الطلبة أو التلاميذ الذين أنهوا تعليمهم الابتدائي بمدارس الجمعية دراستهم، كما قام ببناء المدارس إذ يرى بأن التعليم نوع من الجهاد ويرى المدارس ميادين للجهاد ويعتبر المعلمين مجاهدين, ذلك لان التعليم هو عدو الاستعمار اللدود, كما قام بتكوين لجنة التعليم العليا وقد نشأت في 13سبتمبر 1948م، وقد كانت بمثابة وزارة التربية الشعبية، وعهد إليها بوضع البرامج وتقرير الكتب الدراسية وتعيين المعلمين وتنظيم الملتقيات التربوية وعمل على إرسال البعثات الطلابية إلى الدول العربية وذلك منذ سنة 1938م، ولكن الحرب العالمية الثانية حالت دون ذلك وقد استأنفت الجمعية نشاطها وفكرت مرة في مسألة البعثات وبدأت بأقرب البلدان إلى الجزائر وهما تونس والمغرب[12]. دون أن ننسى مواصلة مسيرة نشاطه في كتابة المقالات التّوعوية في كل مجالات الحياة ونشرها في جريدة البصائر وعيون البصائر.

خامساً: مظاهر الإصلاح الديني والقومي عند الإبراهيمي في كتابه "عيون البصائر"

تعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أكثر الجمعيات الدينية والثقافية الجزائرية شهرة، ذلك أنّ سمعتها في تاريخ الإصلاح والثقافة تعدت الجزائر لتشمل العالم كله، لتقتحم حدود دولتها وتتجاوزها، ويرجع ذلك إلى التفاف الكثير من العمالقة في الفكر والأدب والدين والنشاط في آن واحد وفي جمعية واحدة[13]، وقد مرت هذه الجمعية بمرحلتين اثنتين

ترأسها العلامة "عبد الحميد بن باديس" في بداية تأسيسها عام 1931، إلى أن وافته المنية عام 1940، لينوب عنه العلم الفذ إمام الجزائر وعلاّمتها وفخر العلماء العرب والمسلمين قاطبة الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، فقد كان "أحد أبرز أقطاب هذه الجمعية وواضع قانونيها الأساسي والداخلي, وكان فيلسوفها الحكيم، ولسانها البليغ، فانتخب بالإجماع نائبا لرئيسها الإمام "ابن باديس" في حياته، ثم رئيسا لها بعد وفاته في 1940/04/16"[14] غيابيا جراء سجنه في قرية نائية وهي –أفلو– فصبر صبر المؤمن ولم يحزنه ما أصابه في سبيل دينه ووطنه إلى أن فرج عنه الله وأفرج عنه ليجد نفسه "قد اصطفوه إخوانه لخلافة الإمام ابن باديس في رئاسة جمعية العلماء"[15].

وما إن اضطلع "الإبراهيمي" بقيادة جمعية العلماء المسلمين حتى بدأ بمواصلة مسيرته الإصلاحية داخل الجمعية بعهدة "إبراهيمية" ليندفع بكل ما أوتي من قوة وعزيمة ليحرّر هذا البلد من ربقة الاستعمار الصليبي اللّعين, حيث عادت الحياة إلى الجمعية بعد "أن أحجبت عن الساحة لمدة من الزمن, لتعود كما تعود الشمس إلى الإشراق بعد المغيب، وتعود الشجرة إلى الإبراق بعد التسلب، فلا يكون اعتكار الظلام، وإن جلل الأفق بسواده كذلك البصائر احتجبت صورتها عن العيان وإن كانت حية في النفوس ممثلة في الأفكار وإن في احتجابها لصنعا إلاهيا"[16].

ونسعى في هذه الورقة البحثية إلى إبراز بعض جهود الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" من خلال ما أصدره في كتاباته الإصلاحية من الجانب الديني والقومي من خلال قراءة بعض المختارات من مقالاته المجموعة في كتابه "عيون البصائر" ومدى تأثيرها الكبير على العقول لتنويرها وتحريرها من آثار الاستعمار الكولونيالي.

أ– الجانب الديني

آثار الشيخ "الإبراهيمي" باعتباره أحد أكبر المصلحين في الجزائر ورئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الفترة الممتدة (1940–1956) قضية إصلاحية دينية في عدة مقالات متفرقة ندّد بضرورة فصل الدّين عن الدولة، ومن جملة المقالات التي أثارها الشيخ في هذا الجانب قضية **"فصل الدّين الذي من فروعه "الحج"** باعتبارها أحد الشعائر الكبرى

في الإسلام، وركناً أساسيا من أركان الإسلام الخمسة، وفي هذا المقال وضحّ الإبراهيمي وعلّل السبب الرئيسي الذي دفع الحكومة الفرنسية انتهاج سياسة الكبح والتضييق على الشعب الجزائري حتى يحرم من أداء فرضه أمام الله، فيقظة الشيخ وغيرته على بلاده وشعبه دفعت به إلى كشف سياسات العدوّ اللّعينة وإعلانها للملأ عن طريق نشرها في جريدة البصائر التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فإصلاح الامة من التّخلخل والضّياع يبدأ بصلاح دينهم، وفلسفة الإصلاح الديني تمتلئ بها كتابات الشيخ لإصلاح الفساد وبناء ما هدم حفاظا على سمعة الوطن وشرفه ونسبه، حيث اعتمدت الحكومة الفرنسة ضد الشعب الجزائري المضطهد إبان حكمها اللعين سياسة القبع والسيطرة الكاملة عليه في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، فهذه المحاربة الكولونيالية الشرسة تكريساً لهدفها الذي ترنو إليه بهدم معالم الدين الإسلامي ومسح هويتهم ونسبهم ثم تنصيرهم "من قبل رجال التبشير بالدين المسيحي أعين المنصرين الذين كان الاستعمار يشجعهم وينصرهم بأمواله"[17] تحت غطاء التعديل والتنظيم، ومحاربة الفساد وقبعه على حسب البنود التي وضعوها وصوتوا عنها لتطبيقها على الشعب الجزائري، بيد أن المتمعن لمظاهر الحياة في تلك الحقبة الاستعمارية يدرك معنى تطبيق القوانين الظالمة وفرضها على الشعب.

ولأجل توعية الناس وتنوير ذهنياتهم العقلية سعى الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" إلى اتباع سياسة إصلاحية تنويرية فعّالة يحرض فيها الشعب الجزائري ضد المستعمر الكولونيالي، وانتشاله من قبعة الجهل والأمية إلى نور المعرفة، فاعتمد كتابة عدة مقالات متنوعة التناول رمى من خلال نشرها تثقيف الناس وتحسيسهم بخطورة الوضع المعيش وذلك بتشييّد المدارس وإنشاء حلقات دينية وأخرى سياسية واجتماعية، "فأيقظت ضميرهم، وحرّكت مشاعر نفسهم فاستفاقوا من غفلتهم كما يستفيق النائم من نعاسه"[18] فقد كانت سنة ثلاث وأربعين تسعمئة وألف فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس فأنشأت في سنة واحدة ثلاثا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسا عربيا مسلما فجاءت على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة[19]. وقد ارتأيت في هذه الورقة البحثية اختيار نماذج مختارة من مقالات "الإبراهيمي" من كتابه "عيون البصائر" نحلل ما جاء فيها من بيانه التوّعوي الإصلاحي.

فمن المعهود والمتعارف عليه في أي سياسة استعمارية في التاريخ الحديث ليس في الجزائر فقط بل على مجموع بلدان العالم التي ذاقت ويلات الاغتصاب بشكل أنواعه، يعلم أنّ اللّغة والهوّية والدّين هم العناصر الأولى المستهدفة من قبل المستدمر باعتبارها أهم ركائز أي وطن بها تحيا أو تموت، فالقضاء على النّسب ومحوه صعب تحقيقه إلا بالقضاء على الدّين وزعزعته من نفوس الشعب حتى يتسنى لهم غلغلة دينهم الصليبي اللعين، فقد عان الشعب الجزائري ويلات الاستعمار الكولونيالي بمختلف ألوانه وأشكاله, لكن بعد الحرب العالمية الأولى وبظهور الحركات الإصلاحية في الجزائر متكونّة من نخبة فريدة من عظماء الجزائر ورجالها الأفذاذ الخالدين، شكلت فريقا إصلاحيا يقظاً لسياسات الفساد المسلطة على الشعب الجزائري, فأصبح لزاما على الفئة المثقفة من أبناء الشعب النهضة من سباتها العميق الذي دام لسنوات طوال هدمت فيه فرنسا المعالم الأساسية للبلاد، وهذا لن يتحقق إلا بالعمل الجاد وقوة إيمان والتّكاتف الجماعي لحماية شرف الوطن من الضياع والحفاظ على العروبة والإسلام.

إنّ الإصلاح الدّيني منهجية متكاملة الأجزاء اشترك في صياغتها الفساد بأوغاده والباطل بعدوه، ومن خلال ذلك كله العدو بعدته وعتاده[20].

تبارك قلم الإمام الإبراهيمي وفكره، هذا الطبيب الاجتماعي والعالم المسلم الذي وعى قضية تخلف وطنه وأمّته، فصاغ الفهم الدّيني الصحيح للإسلام الدواء، ممثلة في تشخيص عوامل التأزم الديني، ووصفه العلاج من الدّين، والموكول إليه تقديم هذا العلاج وهو جمعية العلماء[21]. ويعتبر مقاله الموسوم بـ **"قضية فصل الدين" والذي من فروعه "الحج"** كشف فيه عن المعاملات الخبيثة والثّاوية التي انتهجتها السياسة الاستعمارية ضدّ الشعب الجزائري حتى تضيق عنه الخناق وتكبت حريته في ممارسة طقوسه الدّينية من غير وجه حق، وللظروف العامة للبلاد وحساسية الوضع اتجاه القوة الاستعمارية سياسيا كانت أم عسكريا خلق عند الشعب الجزائري رعباً مهيبا وخوفا رهيبا اتجاههم، حقوق مهضومة ودموع تذرف جراء ما تفعله فرنسا من تخريب ودمار وسيطرة كلية عليهم، هذا ما جعلهم يسكتون ويكظمون جروحهم بداخلهم، خوفا من أي ردة فعل فرنسية عسكرية عنيفة

فالحج باعتباره شعيرة دينية تقام في كل عام مرة واحدة يحتاج فيها الحاج إلى إجراءات إدارية يسيرة حتى يتمكن من السفر والرجوع بكل أريحية, وهذه التسهيلات تبادر بها الحكومة وبما أن بلادنا تحت وطأة الاستعمار الكولونيالي استغلوا ضعف الجزائريين وشغفهم لأداء فريضة الحج وفرضوا عليهم قوانين شبه مستحيلة ظاهرها عبارة عن بنود إدارية شكلية وشروط إن استوفاها الفرد سمح له بالحج، في حين أن باطنها جدّ خطير وهذا ما ندّد به الشيخ "الإبراهيمي" الفذ، فلا يحق للعدو فرض قوانين ينسجها من وحي عقله بما تتماشى وأفكاره الملعونة على شعب مسكين ليست له قوة لإزاحته من بلاده، وقد تناوله في مقاله –نموذج الدراسة– إذ يقول: "تظهر لهم الثقة بهم، وهي تسيء الظن بجميعهم لأنهم مسلمون، تفعل ذلك كله لتقيم الدليل – في زعمها– على تسامحها في الدين واعتنائها بالإسلام والمسلمين، وما اهتمامها –والله– إلا بنفسها وسيادتها وباستعمارها تدعمه ولو بالأوهام، وتثبته ولو بالتلبيس والإيهام[22].

فالمؤامرات الكولونيالية لم تقتصر على الجانب السياسي والاقتصادي للبلاد فقط، بل تعدت ذلك لتتجاوز الأمور الجوانب المتعارف عليها لتغوص في الأيديولوجيات والمعالم الدينية لتشويهها ومسحها من فكر الفرد الجزائري حتى يسهل تنصيره وإدماجه في نهاية المطاف في كيان الأمة الفرنسية الصليبية، فالاحتلال الفرنسي حارب وبكل قوة لتحقيق هدفه المنشود منذ نزلت الجزائر عام 1830م، بيد أنّ المقاومات الجزائرية المسلحة حاربت ما هو ظاهر ولم تتفطن إلى أن السلاح وحده لا يكفي لطرد العدو من البلاد، في المقابل سياسة الشيطنة والمكر تستغل الوضع في تغيير المساجد إلى كنائس وكسر اللغة العربية وتغييرها إلى الفرنسية وغيرها، وبحلول العصر الحديث وبروز جمعيات إصلاحية واعية بخبايا سياسة الاستعمار، نخبة من أبناء الوطن المثقفين والمتشبعين بمختلف العلوم أبوا إلا أن ينتشلوا شعبهم من قاع الظلم والجهل إلى حياة الحرية والمعرفة، وخير مثال جمعية العلماء المسلمين، وهذا ما عالجه الشيخ "محمد البشير الابراهيمي" في طرحه الإصلاحي التّوعوي للنهضة بفكر الشعب الجزائري. فالأمراض التي غرسها الاستعمار في الجزائر متفاوتة التأثير وما على المصلحين إلا إصلاحها وتحديد الدواء المناسب لها، فلمس الدّين ليس بالأمر الهيّن وعلاجه يتطلب الرجوع إلى الدّين لا الابتعاد عنه، وبسياسة الشيطنة المعتمدة على

الشعب حتى يحق له أداء فريضة الحج يعتبرها الشعب الجزائري أمراً إجرائيا غير عادل يتأملون تغييره بمرور الأيام والسنين، راجين رحمة قادمة تنزل عليهم من الحكومة الفرنسية ولا يعلمون أن في شروطها غاية الهدم والتنصير لا خوفا عليهم أو حباً فيهم كما يزعموها المتفائلون، وهذا ما وضحه الإبراهيمي إذ يقول" كان المتفائلون يظنون –وبعض الظن إثم– أنّ الحكومة تنفض يدها من مسألة الحج في هذه السنة، وكانوا يظنون أنها اتعظت بأحدث الدهر وتقلباته[23].

ولا مناص من القول إنّ "الإبراهيمي" شغلت باله وفكره قضايا الوطن، وتطلّع إلى ضرورة إيجاد حلول سريعة وفعالة للحدّ من المعضلات الحج التي يعاني منها الشعب الجزائري في كل عام، وخاصة أنّ المستعمر الصليبي لا يترك مجالا إلا ويضع سيطرته الكاملة عليه بالغصب التّام سياسيا كان أم عسكريا، ويتصرفون في شؤونها كما يريدون هم لا كما نريد وهذا ما وصفه الشيخ الإبراهيمي حكومة بلاده كـ"دار لقمان باقية على حالها، ورأينا من غرائب التّصرفات في حج هذه السنة أشياء جديدة ومبتكرة لم يسبق لها مثيل، وعلمنا أنّ ذلك الطراز الذي نعرفه من حماة الاستعمار لا يهدأ لهم بال، ولا يطيب لهم منام، إلاّ إذا أدخلوا أصابعهم في شعائرنا الدينية وأجروها كما يريدون لا كما نريد ويريد ديننا"[24].

قضية فصل الدّين والتي من فروعها قضية "الحج" التي تناولها الإبراهيمي في طرحه هذا –نموذج الدراسة– لا تقتصر فقط على أداء شعيرة الحج فقط، وإنما يتجاوز طرحه إلى ما أبعد من ذلك، لأن مقاله هذا له أبعاد أيديولوجية ودينية تستدعي من القارئ حضور وعيه التّام لاستيعاب محتواه ومغزاه الأساسي، ويجدر الإشارة إلى أن شيخ المصلحين "الإبراهيمي" في زمن رئاسته للجمعية أو حتى عندما كان نائبها حمل على عاتقه إصلاح وعلاج قضايا الوطن، والتي أهمها الدّين والتّعليم، فمرارة ما يعانيه مسلمو الجزائر في تلك الحقبة من فرض شروط قاهرة على حاجي بيت الله الحرام أثقل كاهلهم وأنطق الساكتين عليهم لعلهم يحدثون قوانين جديد تسعفهم لكن لا خواص, لأنه من البديهي أن يتعاملوا مع الدين الإسلامي عامة والحج كفرع منه بهذه المعاملة أو أكثر، بحكم أن فهمهم للحج غير فهمنا له ولذلك حدث اصطدام وتضارب كبير فيما بيننا، وهذا ما وضحه الشيخ البشير الإبراهيمي قائلا: "الحج في نظر الاستعمار أداة مهيأة لاستعباد الأمم الإسلامية التي أوقعها

القدر في قبضته، يصرفهم بها مصالحه ويستخدمهم بسببها في أغراضه، ويسخرهم بها كما تشاء اهواءهم لا كما يشاء الإسلام وتفتضيه حكمته، ويجعل من وجوبه عليهم وسيلة لإخضاعهم وإذلالهم واستنزالهم على حكمه، ويجعل من خشيته من اتصال المسلمين وتعارفهم مبرّراً للتضييق عليهم"[25]، في حين أنّ الثابت عندنا كمسلمين أن الحجّ هو أحد الأركان الخمسة الأساسية التي يرتكز عليها الدّين الإسلامي، وعليه فكل مسلم بالغ راشد لديه قدرة الاستطاعة (المال – صحة البدن) لابد عليه من إتمام فرضه لقوله صلى الله عيه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان"[26]، حيث يجتمع المسلمون من كل بقاع الأرض بمختلف لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ليلتفوا حول بعضهم البعض مشتركين في نفس الدّين نشعر عندما نلاحظهم وهم يؤدون فريضة الحج كأنهم نفس وجسد واحد يربط بيهم معالم الدّين الإسلامي أخذتهم حرارة الشوق إلى زيارة بيت الله الحرام وزيارة المعالم الدينية الأخرى، وهذا الشعور يرزق الله به المرء المعمور قلبه بحب الله ورسوله، بالرغم من الامتزاج الثقافي وانتماء كل منهم إلى دول مختلفة، وهذا ما وضحه الإبراهيمي: "الحج في الإسلام ركن من أركانه التي بني عليها، يشاركها في الركنية والروح والمعنى العام للتّعبد، ويزيد عليها بمعان اجتماعية حكيمة من السير في الأرض، والاطلاع على الأحوال، والاستزادة بالعلم، والاختبار لأحوال الأمم، والاعتبار بها، والامتزاج بالأمم المشتركة في الدين والتعارف بين الإخوة المتباعدين في المواطن"[27].

وبصرف النظر عمّا يحصل عليه المرء من الأجر والحسنات عند أدائه فريضة الحج، فهذا المؤتمر الديني الاجتماعي للمسلمين لا يقتصر فقط لا الجانب الديني كأداء فرض الشعيرة وتجديد الإيمان وتحصين النّفس من الشوائب وتهذيبها، بل هو فرصة تتعارف فيه الشعوب من مختلف أقطاب العالم يتبادلون فيه المعارف والخبرات، والأخبار العالمية وما حصل وما يحصل، يتطلعون إلى آخر التطورات ويتبادلون التجارة، ويتشاركون فيما بينهم في إيجاد حلول ناجعة لإخراج البلدان العربية الإسلامية التي تحت وطأة الاستعمار الصليبي لتنال حريتها واستقلالها، فهذا الانفتاح على الآخر والتّطلع على مستجدّات الحياة في العالم أثار الخوف والرعب لدى الحكومة الفرنسية، فسعت جاهدة لتضييق الخناق على الجزائريين

حتى لا يتسنى لهم رؤية ما يقع في العالم حتى لا يتحرك لديهم الرغبة في العيش بحرية باعتبار الأرض أرضهم، ناهيك عن ذلك أن الاحتكاك بمن سبقهم في تجربة الاستعمار وتحرّروا منه خاصة مع الدول العربية المجاورة في هذا المؤتمر الديني يفتح للجزائريين آفاقا في معرفة حقيقة الاستعمار ودسائسه اللعينة اتجاه وطنه، فينعكس بالسلب عليه – الحكومة الفرنسية– فتنقلب الأمور ضدهم بعدما استحكموا في البلاد والعباد.

وقد علّل الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" إصراره على فصل الدّين عن الدولة في عدة مقالات مبثوثة داخل كتابه "عيون البصائر" باعتباره الحل الأنسب والعلاج الفعّال للشعب الجزائري يؤدي واجبه اتجاه ربه بدون أي قيود وعراقيل تعيقه، التي وضحها الشيخ في مقاله إذ يقول: "تقول الحكومة في أول شروطها ما نصه: أولا: "البراءة من التهم والإجراميات المدنية والسياسية"[28] وقد فسّر الشيخ المعنى العام والمحدّد للتهم المدنية والسياسية من قبل الحكومة الكولونيالية اتجاه الشعب بأنها خيالية وعجيبة لا يتقبلها العقل البشري, متعمدة خلق فوضى وزعزعة في إيمانية داخل قلوب الجزائريين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا انتظار فرج الله، ومن زاوية أخرى نرى أن اتباع أخبث أنواع العنف السياسي ضد شعب أعزل وضعيف تبيّن أن فرنسا وحكومتها الظالمة تطمح إلى الاستحواذ على الأرض والشعب معاً، مهما كلفها الأمر، كما يقول الفيلسوف الأمريكي "الغاية تبرر الوسيلة"، حيث يقول الابراهيمي في هذا الصدد: "يتحكم الاستعمار الفرنسي فهذه الدولة المسيحية تقبع حرية الشعب في حقه الديني الطبيعي، فترك مساحة حرية العبد في ممارسة طقوس دينه تعدّ حقاً من حقوقه البديهية والطبيعة، ولا يمكن لأي كان كبتها أو وضع شروطا تعجيزية لأدائها، ويقول الشيخ بهذا الخصوص: "يتحكم الاستعمار الفرنسي ويجري ألاعيبه حتى يخرج عن حقيقته التي هي معاملة بين المسلم وربّه إلى مساومة تجارية سياسية أحد طرفيها الدّين والضمير، وإلى معاملة استبدادية بين حاكم مسيحي مستبد بيده الباب والمفتاح والرخصة والذهب والمركب وطرق السفر في البر والبحر والجو, وبين مسلم مغلوب عن أمره ليس له إلا إيمان في قلبه"[29].

ولم تكتف الحكومة الكولونيالية نشر شروطها المسمومة على الراغبين في الحج لتزيد تعسّفها في السّماح لفئة قليلة من النّساء لسبب غير معلوم، فقد أخبرنا الشيخ في مقاله –نموذج الدراسة– على التّحكم الفرنسي الجهنّمي والمعاملات الخبيثة التي انتهجها المستعمر على حجاج بيت الله الحرام، حيث يقول الشيخ متعجبا لما يحدث من قوانين: "والمرأة فقد كان لها شأن عجيب، قالت الحكومة لا يحج في هذا العام من النساء إلا عددا محدودا"(30).

وممّا لا شك فيه أنّ المرأة أساس صلاح البيت والمجتمع، فبصلاح قلبها ودينها يصلح المجتمع، وبفساد دينها تهدم البيوت التي هي لبنات المجتمع وخلاياه، بها تنهض الأمم وترتقي، فتعمدت الحكومة الصليبية عزل المرأة عن تنوير عقلها وتصحيح دينها المنتسبة إليه وشحن نفسها بعقيدة الإسلام، فهذا الاختلاف الأيديولوجي بين العدو والشعب الجزائري خلق صراعاً سياسيا قوياً ينتصر فيه صاحب القوة والنفوذ، ولا تنتصر الأمة إلا بعلمائها وهذا ما كلّفت جمعية العلماء من جهد إصلاحي في كل مجالات الحياة، فتشخيص الداء وإيجاد الدواء لابد له من علماء متشبعين بفطنه وذكاء وإيمان قوي وصحيح.

إنّ فصل الدّين عن الدولة والذي يعتبر الحل الأنجع لهذه المعضلة –الحج– وهذا ما علاجه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مقاله هذا بعد أن حدّد المشكلة وأسبابها، وأوجد العلاج المناسب له، فتدخل الحكومة الاستعمارية في شؤون الشعب الدينية أمر لا يسكت عنه بتاتا، فهو يعد عن حرمات الشّعب ومقوماته، فهذا التّمرد السياسي قابله الإبراهيمي بإصلاحات علاجية فورية قصد بترها وتضميد جراحها باعتبار ان الوطن جسد واحد إذا اشتكى عضو اشتكت سائر الأجزاء، فالجمعية متفطنة لسياسات المستعمر وواعية لكل تحركاته الشيطانية، فجاءت كالبلسم الشافي للوطن يسيّرها علماؤها من أبناء الوطن الذي لهم فضل تنوير عقول الشعب وإخراجهم من الظلمات إلى النور إلى نور المعرفة، ويعدّ الشيخ الإبراهيمي أحد مؤسسي الجمعية الذي لم يهدأ له بال بعد العلامة عبد الحميد بن باديس في إكمال مسيرة أهداف الجمعية في نهضة الفكر الديني ونشر التعليم على كافة ولايات الوطن وتوعية الناس بالوضع العام وظلم المستعمر وحقه في الحرية والعيش بسلام وقد لاقت بفضل الله وعونه صدى كبيرا من قبل الشعب الجزائري وتجاوب في تطبيق ما ترنو إليه الجمعية، بل ساعد بعض أثرياء الوطن في تشييد المدارس وبناء المساجد ودعم الجمعية ماديا ومعنوياً.

ب– الجانب القومي:

ويواصل الشيخ "الإبراهيمي" إصلاحاته القوية والفعالة اتجاه وطنه وشعبه المغوار، والتي لمست جميع مجالات حياة الإنسان وانشغالاته اليومية، فحياته مليئة بجليل الأعمال والأفعال باعتباره أحد كبار أئمة الإصلاح وطنيا وعربيا، ومن أهم الجوانب التي سلّط عنها الشيخ الإبراهيمي الضوء الجانب الوطني والقومي لما له أهمية كبرى داخل قلوب الجزائريين، فحب الأوطان والغيرة عليه من الإيمان، ومن واجب كل فرد أن يهتم بقضايا وطنه والمشاركة في حلّها ومعالجتها، ومن بين ما شغل بال الشيخ ووقف عليه في هذا الجانب قضية **"الشباب الجزائري كما تمثله لي الخاطر"** وما يكابده في ظل الجو الراهن – فترة الاستعمار – مقاله الذي تناول فيه حقيقة ما يجب أن يكون عليه حال الشباب الجزائري دينيا وخلقيا وإنسانياً ووطنياً، فالروح الوطنية وغريزة حب الوطن تكتسب من تفقهنا للدين والعمل به وتكريسه في حياتنا ومعتقداتنا، وهذا ما سعى إلى طرحه الشيخ الإبراهيمي نظراً لتغلغل أيديولوجيات أخرى داخل الوطن أثرت على نفوس وذهنيات الشعب، وقد وضّح الشيخ حقيقة ما يجب أن يكون عليه حال شبابنا والرجوع إلى نسبنا وعروبتنا، فمصطلح "التمثيل" الذي اختاره الشيخ كأحد عناصر مقاله لم تأتي من فراغ, فتأمل الإمام وفكره البعيد وقوة معرفته لكبائر الأمور وصغائرها جعل منه شخصا فذاً متمحّصا لكل مشاغل الحياة وكيفية علاجها مع تشخيص الدواء المناسب لها، حيث ابتدأ الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" بضرورة فهم الشباب للحياة وما يدور فيها قائلا: "أتمثله متساميا إلى معالي الحياة، عربيد الشباب في طلبها, طاغيا عن القيود العائقة دونها، جامحا عن الأعنة الكابحة في ميدانها، متّقد العزمات تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، نشاط الجوارح"[31].

وتماشياً مع ما تمّ ذكره، فالإبراهيمي وضع مجموعة الأسس والقواعد التي يجب أن يرتكز عليها الشباب الجزائري حتى ينهض بنفسه وبأمّته ويدافع عن قيمّه ونسبه وعروبته فكلّ هذه التّعاليم والتوصيات الإبراهيمية مأخوذة من القرآن والسنة التي تشبّع بهما إمامنا الفاضل وحرص أشدّ الحرص على تثبيتها في نفوسنا والتقيد بالعمل بها مواصلا توصياته وتوجيهاته للشّباب الجزائري حيث يقول: "حلف عمل، لا خليف بطالة، وحلس معمل لا حلس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال"[32].

وقد طرح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي جملة من الخطوط العريضة التي بها يستقام الوضع بالبلاد وهذا لا يصلح إلاّ بصلاح الشباب الذين هم العمود الفقري وركيزة الوطن فوجود مثل هؤلاء العلماء لا خوف علينا ولا هم يحزنون، متمثلاً ما ملت عليه قريحته المليئة بالإيمان وزهد الحياة, وحرصا على ثبات الأمة وصلاحها وضع الشيخ الإبراهيمي جملة من البنود التي عليها تستقيم أحوال البلاد والعباد خاصة فئة الشباب للطاقة المفعمة التي يمتلكها فلابد له أن يستثمرها في جانبها الإيجابي متبعا مسار الدين الإسلامي، حيث يقول: "أتمثله مجتمع الأشدّ على طراوة العود، بعيد المستمر على ميعة الشباب، يجمل ما حمل من خير لأن الإسلام طبعته على الخير، ولا يحمل ما حمل من شرّ لأنّ طبيعة الإسلام تأبى عليه الشرّ – فتح عينيه على نور الدين، فإذا الدنيا كلها في عينيه نيرة مشرقة، وفتح عقله على حقائق الدّين، فإذا الدّين والكون دال ومدلول عليه، وإذا هو يفتح بدلالة ذاك مغالق هذا، وفتح فكره على عظمة الكون فاهتدى بها إلى عظمة المكوّن، فإذا كل شيء في الكون جليل لأنه من أثر يدّ الله، وإذا كل شيء فيه قليل لأنه خاضع لجلال الله، ومن هذه النقطة يبدأ سموّ النفوس السامية وتعاليها"[33].

ولمحدودية هذه الورقة البحثية فلا يسعنا ذكر مجمل التمثلات التي ذكرها "محمد البشير الإبراهيمي" الموجهة للشباب الجزائري المقدام، حيث رأى فيه حس المسؤولية والاجتهاد تجاه دينه ووطنه، ناصحا إياه بضرورة التّمسك بهما والحفاظ عليها من أي دخيل آخر باسم الحداثة أو العولمة، وإني أراها والله صالحة لكل زمان ومكان، فهي مستقاة من دستورنا في الحياة ألا هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فما علينا إلا تطبيقها على أرض الواقع لننهض وننمو ونسمو حتى لا نترك أي فجوة للعدوّ اللعين يكسرنا أو يذلنا بها، فنهضة الأمة بعلمها وعلمائها، ولهذا نحمد الله على أن رزق وطننا بمثل هؤلاء الأشخاص الأفذاذ أمثال: عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي, العربي التبسي وغيرهم.

ومن جملة القضايا التي تناولها الشيخ "الإبراهيمي" في آثاره وطرح كيفية معالجتها قضية **"حقوق المعلمين الأحرار على الأمة"** التي تعد من الأزمات الكبيرة في فترة الاستعمار الكولونيالي والذي سعى جاهدا محو هويتنا ولغتنا المحلية واستبدالها باللغة الثانية (لغة

العدو)، وهذا الخطر العظيم لا يزول إلا إذا تكاتفت الأيادي وتوحّدت السرائر لمجابهة هذه المعضلة, وقد نجحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفعل جهود علمائها والقائمين عليها بفتح مدارس ومعاهد لإحياء اللغة العربية وتراثنا العربي الإسلامي قصد تنشئة جيل تدّب فيه الروح الوطنية وتغرس فيه القيم الدينية الإسلامية وهذا لا يتأتى إلا بجهود المعلمين ووقوفهم القوي ودعمهم الكبير لإخراج هذه الفئة من المتعلمين إلى برّ الأمان، بيد أن هذه "الطائفة المجاهدة"[34] على حسب رأي الإبراهيمي تعاني الويلات وتكابد الحسرات في وقت تسوده الظلمات والتعدّي على حقوق المعلم البسيطة التي تعينه على مصاعب الحياة في تلك الفترة، وهذا ما ندّد به الشيخ الإبراهيمي قائلا: "نعني هذه الطائفة الصابرة على مكاره الحياة كلها، المحرومة من الراحة والاطمئنان في جميع أوقاتها، فهي في شتاء تشقى وتتعب, وفي الصيف تضحي وتنصب، وفيما بين ذلك تكابد وتعاني على ضيق العيش وتنكر من الدهر وتجهم من الولاة، وفقدان للحافز من الرغبة والتنشيط، فلا مسكن مريح ولا شمل مجموع, ولا مرتب كاف يسدّ الضرورة، ويقوي الضعيف ويخفف الهمّ، ويصون الهمّة عن التبذل"[35].

وفي مقال مطوّل ثمّن الإبراهيمي قيمة المعلم وبدوره الفعاّل والإيجابي في تنشئة الفرد وتكوينه دينياً وخلقياً وعلمياً، وعليه سميت وزارة التّربية والتّعليم والتي جعلتها جمعية العلماء المسلمين العمود الأساسي لها للأهمية العظمى التي يحملها المعلم لتعليم وتنوير العقول والقلوب، فالتعليم أمانة يتحاسب عليها المعلم أمام الله قبل أن تكون وظيفة يسترزق منها في الحياة، بيد أن المسؤولين على الشؤون المالية المباشرة لصرف رواتب المعلمين لا تبالي اهتماما لهذه الفئة الصابرة على مكاره الحياة، ولا تعطيهم أهمية للمجهود الكبير الذي يبذلونه في سبيل نهضة البلاد والعباد، والجمعيات التي خصها بالذكر الامام الشيخ "الإبراهيمي" الجمعيات المحلية فقصور عمل هذه الجمعيات في توفير راتب يسدّ حاجيات المعلم ويحفظ له ماء وجهه ليس بالأمر الصعب أو عسر عليهم مستحقات المال الخاصة بالمعلمين، بل الوضع تعدّى ذلك وصرفوا جلّ اهتمامهم إلى المدارس المادية حيث يقول في هذا الصدد وقد عاتبهم على تقصيرهم في أداء واجبهم المالي اتجاه هذه الطائفة البائسة:

"نوجّه بعض العتب إلى رجال جمعياتنا المحلية ولا نبرئهم من تبعة التقصير, ونعيب فيهم خله تكاد تكون كادت تكون غالبة عليهم, وهي أنهم يؤثرون المصالح الخاصة على المصلحة العامة"[36]. فتقديم المصلحة الخاصة عن العامة يعود بالسلب على الظروف العامة للجزائر خاصة في ظل السيطرة الكولونيالية وتبعاتها الخطيرة.

وفي وقت صعبت فيه المعيشة والغلاء الفاحش، ضيقت هذه الجمعيات المحلية على المعلم في أخذ حقّه الشّرعي الذي يحفظ مكانته وكرامته، فالأثر الذي يتركه المعلم على تلاميذه نفسيا وعقليا لا يحدث بشكل تام إلاّ بتمام الراحة النفسية والعقلية عند المعلم، وما إن تتزعزع فيه عدم الأمان والاستقرار في حياته ومعيشته فهذا يحدث عدم التوازن في توصيل العلم والمعرفة والدين لتلاميذه، ولخطورة الوضع وضع الشيخ هذا المقال المفصّل لتدارك الوضع واستئصال الورم الذي يسري في المجتمع الجزائري الذي يقلل من دور المعلم ويهينه.

ومن جهة أخرى وجّه "الإبراهيمي" نداءات إلى ذوي المال والجاه بضرورة دفع حق الله في أموالهم، والتي جعلها حلاً من الحلول لفكّ هذه الضائقة على المعلمين وتضييق بعض أسباب التعاسة عندهم، فيقول: "لو كان لمدارسنا مدد ثابت من الأغنياء وحق الله في أموالهم لجعلناه بعض ما نبني عليه في التوسيع على المعلمين وإزاحة بعض عللهم"[37].

وتماشياً مع ما تمّ ذكره، فالإبراهيمي في هذا المقال الإصلاحي والذي يلمس فيه ضرورة حفظ كرامة المعلم وشرفه لعظمة المردود الذي يقدمه في سبيل تنوير الأمة وأبناءها وإخراجها من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة، وهذا المجهود الجبار لابد أن نأخذه بعين الاعتبار ونرد جميله، فلو علمنا أثره على نهضة أمتنا ورقيها لما قابلنا المعلم بهذه السلبية, فالجيل مرتبط بمعلميه إما أن يكون أو لا يكون، وهذا ما دفع بالشيخ الإمام "الإبراهيمي" بتسليط الضوء على هذه الفئة المظلومة وإرسال نذير تنبيه للمسؤولين القائمين على المدارس وشؤونها المالية.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نذكر قول أمير الشعراء **"أحمد شوقي"** في حق المعلم:

قـــم للمعلـــم وفـــه التبجيـــلا كاد المعلـــم أن يكـــون رســـــولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشـئ أنفساً وعقـــــولا

فلولا المكانة العظيمة التي خصّها الله للمعلمين لما قربهم من منزلة الرسل في أدائهم لرسالتهم تجاه أوطانهم ولحمل ثقل هذه الأمانة جعل الأجر مضعّف وثمار جهده يجنيها في الدنيا والآخرة، فهو قدوة ونموذج يقدى به، فمعظم أوقات الطلاب تقضى داخل المدارس فيتأثرون بسلوكياته وتصرفاته وقيمه ومبادئه فتنغرس داخلهم ويعملون بها، وأي تغير في حالة المعلم ينعكس على طلابه، وهذا ما حاول الإبراهيمي ايصاله للمسؤولين المالين القائمين على شؤون المدارس بضرورة الإسراع في توفير جوّ ملائم لحياة المعلم تشجيعا لهم لمردود علمي وديني قوي وفعال يعود بالنفع الوفير على طلابه وعلى كل أفراد المجتمع لنحيا بجيل واع وفاهم لمعاني الحياة و أسرارها.

خاتمة:

ليس من اليّسير أن نتحدّث عن الإصلاحات الدّينية والقوميّة التي عالجها الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، هذه الشّخصية الفذة المحنّكة الملمة بكل مجالات الحياة، خاصة في هذا الحيّز المحدود، فقد خصصّنا في هذه الورقة البحثية تحليل بعض المقالات التي سلّط عنها الإبراهيمي اهتماماً بالغاً لهذه العلل المبثوثة في تلك الحقبة التي غاص فيها المستعمر الكولونيالي بكل قواه لتقويض معالم الهوية الوطنيّة والدّينية، حيث نستخلص ما يلي:

- نشر الوعي الدّيني على أفراد المجتمع الواحد وذلك بفصل الدّين عن الدولة حتى يتسنى للشعب أداء شعائره الدينية بكل حرية وسكينة، فهذه المعضلة التي عان منها الشعب الجزائري إبان الحكم الكولونيالي قيدوا أداء مهامه الدينية بالدولة والقوانين المفروضة عليه خاصة عند أداء فريضة الحج، وقد فصّل الإمام الإبراهيمي في مقالات عديدة ضرورة فصل الدين عن الدولة لكسر حاجر العوائق والوقوف على الثغرات التي يستخدمها المستعمر حتى يبعد الشعب عن دينه ونسبه وغرس الدين الصليبي فيه ليسهل تجنيسه وهذا ما دفع بالشيخ الإبراهيمي لكتابة مقالات مطوّلة في هذا الموضوع لتوعية أفراد الأمة بخطورة الوضع ووضع بين أيديهم الحل ألا هو فصل الدين عن الدولة.
- عالج "الإبراهيمي" أهم قضية تركز عليها أي أمة من الأمم بها تحيا أو تموت وهي قضية العلم والمعلم ومكانتهما داخل الوطن، أنبل وأعظم مكانة للمعلم همشت من قبل

المسؤولين المحلين على حسب الإمام الإبراهيمي ماديا ولا يعطون الحق الشرعي له لحفظ كرامته وشرفه بالرغم من الأثر الإيجابي الذي يلعبه المعلم ونتائجه الباهرة اتجاه أفراد المجتمع خاصة في ظل الظروف الراهنة – عهد الاستعمار– فالأصل نتكاتف يداً بيد حتى نرقى بالأمة ونخرجها من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة, لا تضييق الخناق عليهم وتعذيبهم وتشريدهم، فنحن نحاول تدارك الوضع ونصلحه لا نخربه بأيدينا.

- الملاحظ من مقالات الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" أنه يطرح القضية المراد تناولها مع تقديم العلاج الناجع لها، فمن خلال قراءتنا لبعض مقالاته لمست فيها حرصه الشديد وخوفه الكبير على البلاد والعباد، ولتشبعه بجلّ العلوم الدينية والدنياوية فالعلاج الذي قدّمه في تلك الحقبة التي كتبها فيها صالحة لعصرنا الحالي وحتى لعصور قادمة، فما علينا إلا تطبيق العلاج على أرض الواقع ولا ريب أن أثرها وخيرها وفير بإذن الله، والحمد لله لم يذهب جهد الجمعية سداً فقد استقلت بلادنا وتحررت بفضل جهود علمائها من جهة والثوار الأحرار من جهة أخرى، ولايزال ليومنا هذا نشاط الجمعية ساري المفعول داخل تراب الوطن، رحم الله فقيد الأمة وأسكنه فسيح جنانه.

الهوامش والإحالات

(1)– تركي رابح عمامره، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931–1956) ورؤسائها الثلاثة، موفم للنشر، ط1، 2004، الجزائر، ص33.

(2)– سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين في فرنسا 1936–1956، تصدير: الأستاذ أبو القاسم سعدالله، تقديم: الأستاذ محمد الصالح الصديق، دار هومه، دط، الجزائر، 2012، ص 13.

(3)– إبراهيم مياسي، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومه، الجزائر، 2010، ص 176.

(4)– تركي رابح، عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر ط2، الجزائر، 2009، ص 179.

(5)– تركي رابح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931–1956)، المرجع السابق، ص 34.

(6)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج 3، الجزائر، ص 42.

(7)– عبد الغفور الشريف، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر 1954–1956، رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر3 ، الجزائر، 2010–2011، ص 51.

(8)– تركي رابح عمامره، المرجع السابق، ص 42.

(9)– سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا، دار هومه، الجزائر، ص 07.

(10)– الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، قصر الثقافة، الجزائر 2005/1426، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2006/1427م، بيروت، لبنان، ص 10.

(11)– خالد بوهند، رحلة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى الشرق العربي والإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ص 1–2.

(12)– عبد الغفور الشريف، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر 1954–1956، رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام قسم علوم الإعلام والاتصال, جامعة الجزائر3، الجزائر، 2010–2011، ص 106–110.

(13)– ينظر، نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار الأنوار للنشر والتوزيع، ط2، 2016/1437، ص 25.

(14)– الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 25.

(15)– المرجع نفسه، ص 27.

(16)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، المرجع السابق، ص 15–16.

(17)– تركي رابح عمامره، المرجع السابق، ص 106.

(18)– خالد مرزوق، المختار بن عامر، مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان، آثار ومواقف، 1907–1931–1956، دار زمورة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2013، ص 25.

(19)– نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية، المرجع السابق، نقلا عن آثار محمد البشير الإبراهيمي، ص 285/5.

(20)– الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 367.

(21)– المرجع نفسه، ص 367.

(22)– آثار الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 55.

(23)– المصدر نفسه، ص 55.

(24)– المصدر نفسه، ص 56.

(25)– المصدر نفسه، ص 57.

(26)– رواه البخاري(9/1)، رواه مسلم في الإيمان(21/20)، ورواه الترمذي(2609)، نقلا عن: أبو بكر جابر الجزائري، منهاج المسلم، دار الإمام مالك، ط1، 1433/2012، ص 248.

(27)– آثار الإبراهيمي، المرجع السابق، ص57.

(28)– المصدر نفسه، ص 58.

(29)– المصدر نفسه، ص 57.

(30)– المصدر نفسه، ص59.

(31)– المصدر نفسه، ص 586.

(32)– المصدر نفسه، ص 586.

(33)– المصدر نفسه، ص 591.

(34)– المصدر نفسه، ص 306.

(35)– المصدر نفسه، ص 306.

(36)– المصدر نفسه، ص 307.

(37)– المصدر نفسه، ص 307.